حول مقاومة شرق المغرب للأهداف التوسعية الرومانية خلال منتصف القرن الأول للميلاد

محمد اللبـار
كلية الآداب ــ فاس سايس

تـمـهـيـد :

يشكل تاريخ المقاومة المغربية ــ في كافة العصور التاريخية، قديمها وحديثها على حد سواء ــ أنصع صفحات تاريخ المغرب والمغاربة، إذ كانت المقاومة دوما أهم وسيلة ناجعة للدفاع عن المقومات الحضارية للأمة وعن مقدساتها السياسية.

وقد كانت مقاومة المغاربة ــ في مرحلة التاريخ القديم ــ مقاومة شعبية وقفت بعزيمة وذكاء في وجه كل الذين استهدفوا كرامة البلاد وعزة أهلها (فنيقيين ورومان ووندال وبيزنطيين)، مساهمة بذلك في وضع أسس ملحمة المغرب الخالدة، ملحمة شعب مستميت في الدفاع عن أنفته ووجوده.

نعم، لقد حظيت بعض حلقات مقاومة المغرب والمغاربة للتدخل الاستعماري خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة بعناية وافية تمخضت عنها عدة دراسات تاريخية قيمة أبرزت العديد من الصفحات المشرقة في تاريخ المغرب.

ولكن حلقات مقاومة التدخل الاستعماري خلال الفترة القديمة ــ بالرغم من كل ما اتسمت به هذه المقاومة من وعي وقوة وعزيمة ــ لم تحظ بأية عناية كافية جيدة أو دراسة هادفة جادة لحد اليوم.

وعليه، فهذا العرض يهدف إلى تسليط الضوء على جانب هام من جوانب تصدي المغاربة للاستعمار الروماني خلال القرن الأول للميلاد مع التركيز على مساهمة شرق المغرب.

أولا : وضعية المملكة المورية إلى حدود سنة 40م :

أ ــ مراحل توسع المملكة قبل سنة 33 ق.م :

عقب سقوط قرطاج سنة 146 ق.م في يد القائد الروماني سكيبيو إميليانوس، وإعلان ممتلكاتها سابقا أول ولاية رومانية في إفريقيا الشمالية، لم تتضرر المملكة المورية و لم تذعن لروما واستمرت محافظة على استقلالها داخل كيان يمتد ما بين نهر ملوكا شرقا والمحيط الأطلسي غربا[1] (انظر الخريطتين رقم 1 ورقم 2).

بل أكثر من ذلك استطاع الموريون في عهد ملكهم بوخوس الأول (145-81 ق.م) (انظر شجرة ملوك موريطانيا) أن يوسعوا مملكتهم شرقا على حساب جيرانهم الماسيليين إلى حدود واد شليف بعد اندحار الملك يوغورطة سنة 105 ق.م. على يد القائد الروماني ماريوس[2].

كما أن ملكهم بوخوس الثاني (49-38 ق.م) في موريطانيا الشرقية[3] ــ بعد القضاء على آخر ملوك ماسيليا الغربية[4] عربيون (46-40 ق.م) ــ استطاع أن يصل بالحدود الشرقية لمملكته إلى الواد الكبير (أمبساكا [Ampsaga]) حوالي سنة 40 ق.م[5]، علما أن هذا الواد الكبير كان يشكل آنذاك ومنذ سنة 46 ق.م. الحد الغربي للولاية الرومانية الثانية في المنطقة، إفريقيا الجديدة (Africa Nova)، التي غنمها الرومان بعد هزيمة الماسيليين في معركة تبسوس واندحار يوبا الأول (60-46 ق.م) آخر ملوك ماسيليا الشرقية[6] وحليفه

(1) محمد التازي سعود، **حرب يوغورطة والمؤرخ اللاتاني سالوست**، ترجمة نص حرب يوغورطة 19، 102، فاس 1981، ص 108، 188.

(2) Lacroix, «Numidie et Mauritanie», in *Esquisse générale de l'Afrique*, éd. Didot, Paris, 1848, p. 66 ; Jehan Desanges, «Permanence d'une structure indigène en marge de l'administration romaine : La Numidie traditionnelle», *Ant. Afr.*, XV, 1980, p : 79.

(3) موريطانيا الشرقية : كانت في حدود سنة 49 ق.م تمتد بين نهر ملوكا غربا ونهر شليف شرقا، قبل أن يوسعها بوخوس الثاني في اتجاه الشرق.

(4) ماسيليا الغربية : كانت في حدود سنة 46 ق.م تمتد بين نهر شليف غربا والواد الكبير شرقا، قبل أن يضمها بوخوس الثاني إلى موريطانيا الشرقية سنة 40 ق.م.

(5) Stephane Gsell, *Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord,* T. VIII, Paris, Hachette, 1928, pp. 156-157 et pp. 194-196.

(6) ماسيليا الشرقية : كانت في حدود سنة 50 ق.م تمتد بين الواد الكبير غربا والحدود الغربية =

مستنيسا ملك ماسيليا الغربية يومئذ[7] (انظر شجرة الملوك الماسيليين وانظر الخريطتين رقم 3 ورقم 4).

هذا، وعقب عزل بوغود (49–38 ق.م) ملك موريطانيا الغربية[8] سنة 38 ق.م، وضم مملكته إلى نفوذ بوخوس الثاني، أصبح هذا الأخير يتحكم في مملكة شاسعة تمتد بين المحيط الأطلسي غربا والواد الكبير شرقا، ودام حكمه بها إلى وفاته سنة 33 ق.م[9].

ب ـــ فترة فراغ العرش الموري (33–25 ق.م) :

بعد وفاة الملك بوخوس الثاني سنة 33 ق.م ـــ دون أن يترك أي وريث شرعي للعرش الموريطاني ـــ، دخلت المملكة المورية تحت ما سماه الباحث مازار (Mazard) نوعاً من الحماية الرومانية دامت ثمان (سنوات 33–25 ق.م)[10]، وهي الحماية التي اختلف الباحثون في ضبط شكلها وتحديد نوعية تنظيمها سياسيا وإداريا[11].

وهكذا رأى بعض الباحثين أن القنصل أوكتافيوس وضع هذه المملكة تحت تصرفه المباشر[12]، في حين رأى غيرهم أن روما قد فرضت إرادتها وإدارتها على هذه المملكة بواسطة نواب أو ولاة[13]. واعتماداً على أدلة نقدية، استنتج البعض أن مملكة موريطانيا خلال هذه الفترة كانت تحت حكم زعيم محلي بجانبه جهاز

= لأول ولاية رومانية في إفريقيا الشمالية شرقا، قبل أن يحتلها الرومان سنة 46 ق.م ويحولوها إلى ثاني ولاية رومانية في المنطقة تحت اسم إفريقيا الجديدة.

(7) Gsell, *H.A.A.N*, T. VIII, *op. cit.*, pp. 306-308 ; Jérôme Carcopino, *Le Maroc antique*, 10e éd. Paris, Gallimard, 1948, p. 176.

(8) موريطانيا الغربية : وكانت تمتد بين نهر ملوكا شرقا والمحيط الأطلسي غربا.

(9) Dion Cassius, *H.R*, XLVIII, 45.

(10) J. Mazard, *Corpus Nommurum Numidiae Mauritaniaeque*, Paris, 1955, p. 67

(11) J.G. Février, «Bocchus le jeune et les Sosii», in *Sémitica*, XI, 1961, p. 10

(12) Gsell, *H.A.A.N.*, T. VIII, *op. cit.*, p. 201

(13) Lacroix, *op. cit.*, p. 69
J.P., Mesnage, *Romanisation de l'Afrique*, Paris, 1913, p. 10.
Albertini et Autres, *L'Afrique du Nord Française dans l'Histoire*, Paris, 1955, p. 59.

شجرة ملوك موريطانيا

1- باكــا 210؟ - 145 ق.م.

2- بوخوس الأول 145؟ - 81 ق.م.

موريطانيا الشرقية

3- بـوغـود 81 - 80ق.م.

4^1- سوسوس 80 - 62

موريطانيا الغربية

5- يـفـتــاس؟

6- إسكاليس؟

4^2- سوسوس 62 - 49

7^1- بوخوس الثاني 49 - 38 ق.م

8- بـوغـود 49 - 38 ق.م.

7^2- بوخوس الثاني 38 - 33 ق.م.

- فترة خلو العرش 33 - 25 ق.م.

9- يـوبـا الـثـانـي 25ق.م. - 23م.

10- بطـلـيـموس 23 - 40م.

1 ــ ملك موروزيا (موريطانيا) : واد ملوكا شرقا ــ المحيط الأطلسي غربا (انظر الخريطتين رقم 1 ورقم 2).

2 ــ ملك وسع موريطانيا منذ 105 ق.م : واد شليف شرقا ــ المحيط الأطلسي غربا (انظر الخريطة رقم 3).

3 ــ 4^1 ــ 7^1 : ملوك موريطانيا الشرقية : واد شليف شرقا ــ واد ملوكا غربا.

5 ــ 6 ــ 8 : ملوك موريطانيا الغربية : واد ملوكا شرقا ــ المحيط الأطلسي غربا.

4^2 ــ 7^2 : ملوك وحدوا الموريطانيتين (انظر الخريطتين رقم 3 ورقم 4).

1 ← 8 : ملوك من سلاسة باكا.

9 ← 10 : ملوك من سلالة يوبا الأول الماسيلي.

شجرة ملوك الأسرة الماسيلية

1- أيليماس ؟ - 310 ق.م.

2- نارافاس ؟ (ابن أو حفيد أيليماس).

3- زيلالسان؟ (حفيد أيليماس وليس أخا للملك نارافاس).

4- كايا ؟ - 208 ق.م

5- أوزالكس ؟

8- مسينيسا 205 - 148 ق.م.

6- كبوسا ؟

7- لاكومازيس ؟

9- مسيبسا 148 - 118 ق.م.

10- مستنبعل 148 - 139 ق.م.

11- كلوسا 148 - 139 ق.م.

12- هيمبسال الأول 118 - 117 ق.م.

13- أذربعل 118 - 112 ق.م.

14- يوغورطة 118 - 105 ق.م.

15- كوضا 105 - 88 ق.م.

16- هيمبسال الثاني 88 - 60 ق.م.

17- يوبا الأول 60 - 46 ق.م.

18- هرباس 88 - 81 ق.م.

19- مستنيسا 81 - 46 ق.م.

20- عربيون 46 - 40 ق.م.

1 ← 7 : ملوك نوميديا الشرقية (ماسيليا) التي كانت تمتد من واد سيبوس شرقا إلى واد شليف غربا.

8 ← 14 : ملوك نوميديا الكبرى (الشرقية والغربية) والتي كانت تمتد بين الحدود الغربية للممتلكات القرطاجية (ولاية إفريقيا الرومانية منذ 146 ق.م) شرقا وواد ملوكا غربا.

15 ــ ملك ماسيليا التي وقفت حدودها الغربية عند واد شليف فقط، لأن نوميديا الغربية ضمها الملك الموري بوخوس الأول إلى مملكته منذ سنة 105 ق.م.

16 ← 17 : ملوك ماسيليا الشرقية التي كانت تنتهي غبا عند الواد الكبير (أمبساكا).

18 ← 20 : ملوك ماسيليا الغربية التي كانت تمتد بين واد أمبساكا شرقا وواد شليف غربا.

(لفهم هذا الجدول وبياناته، انظر الخرائط رقم 1 ورقم 2 ورقم 3).

إداري روماني على رأسه وال(14).

إلا أن اعتماد أصحاب هذه النظريات على الفرضيات والتخمينات ليس غير، يدفع بنا إلى إبقاء واجب التحفظ قائما من جهة وإلى تأكيد غموض الفترة من جهة ثانية.

هذا الغموض الذي يزداد حدة مع ما أورده بلينيوس الشيخ عن تأسيس أوكتافيوس لاثنتي عشرة مستعمرة بهذه المملكة المورية الفارغ عرشها، ثلاث منها أسست في ما عرف ــ بعد ذلك ــ بموريطانيا الطنجية وهي : زيليس، وبناسا، وبابا يوليا كامبستري(15).

والراجح أن أوكتافيوس بتأسيسه لكل هذه المستعمرات كان يهيئ أراضي المملكة لضمها نهائيا إلى الإمبراطورية الرومانية(16). إذ جعل من هذه المستعمرات قلاعا وحصونا تراقب منها روما تحركات القبائل عن كثب ويمكن الانطلاق منها لقمع ثورات هذه القبائل وصد هجماتها(17). كما جعل منها نقط حراسة تتحكم في طرق المنطقة ومسالكها(18).

زيادة على ذلك، وفي إطار تعزيز الوجود الروماني في المنطقة، عمدت السلطات الرومانية خلال هذه الفترة كذلك إلى تشجيع المعمرين من قدماء المحاربين للاستيطان في المناطق الموريطانية الأكثر خصوبة(19).

ج ــ انتفاضات الموريين في ما بين 25 ق.م ــ 40م :

وفي سنة 25 ق.م، ولما كان ضم المملكة الموريطانية الشاسعة إلى الإمبراطورية

(14) Mazard, *Corpus, op. cit.*, p. 67 ; M. Euzennat, *Le roi Sosus et la dynastie mauritanienne, Mélanges Jérôme Carcopino*, 1966, p : 334.

(15) Pline, H.N, V, 3, 5, d'après Roget, Raymond, *Le Maroc chez les auteurs anciens*, Paris, 1924, pp. 29-30.

(16) Carcopino, *R.H*, CLXII, *op. cit.*, p. 90

(17) Gsell, *H.A.A.N*, T. VIII, *op. cit.*, p. 205.

(18) Marcel, Benabou, *La résistance africaine à la romanisation*. Paris, Maspéro, 1976, p. 71 ; M. Rachet, *Rome et les Bérbères, un problème militaire d'Auguste à Dioclétien*, Latomus, 110, Bruxelles, 1970, pp. 60-61.

(19) Mesnage, *Romanisation..., op. cit.*, p. 10

الرومانية بصفة نهائية يتطلب عدة كبيرة وجيوشا جرارة، تستلزم نفقاتها أكثر مما ستدره المنطقة من المنفعة. فقد ارتأى أوكتافيوس ــ وقد أعلن أمبراطورا منذ سنة 27 ق.م ــ منح عرش هذه المملكة إلى أحد الأمراء النوميديين من الأسرة الماسيلية بعد ما قام بتربيته في روما تربية هيأته ليكون تابعاً مخلصاً للرومان ونصبه ملكا : إنه الملك يوبا الثاني بن يوبا الأول[20].

وهكذا مهدت روما للاستيلاء على موريطانيا بواسطة ملك تعتمد على وفائه وإخلاصه لها، وعلى مهارته السياسية والإدارية، وعلى معرفته بالبلاد وأهلها، وشخصيته ذات الأصل الملوكي، وثقافته الواسعة[21].

وإذا كان بعض الباحثين يرى في عهد يوبا الثاني (25 ق.م ــ 23م) وعهد ابنه من بعده بطليموس (23–40م) فترة ازدهار تجاري وصناعي في المملكة[22]، فإن كل المؤشرات تبين أنهما كانا ينفذان مشروع الرومان الهادف إلى الاستحواذ على كل المملكة، وأن ملوكيتهما كانت تمهيداً لضم المنطقة إلى الإمبراطورية الرومانية.

هذا، ولم تنطو مراوغة الرومان على سكان المملكة ــ الذين كان لفظ الموريين قد جمعهم بصفة عامة ــ[23] إذ رفضت العديد من القبائل المورية الخضوع لطاعة الملك يوبا الثاني حليف الرومان[24]، واصطدمت معه حفاظا على كرامتها ومصالحها المتضاربة مع المصالح الرومانية[25]، في إطار انتفاضة بلغت من الجرأة والقوة ما جعل الملك يوبا الثاني وروما يؤازر أحدهما الآخر بحشد أعداد كبيرة من الجنود بهدف تطويق مناطق الثورات[26].

---

(20) Albertini, *L'Afrique du Nord Française...*, *op. cit.*, p. 59 ; Gsell, *H.A.A.N*, T. VIII, *op. cit.*, p. 207.

(21) انظر الهامش 44 (انظر شجرة ملوك موريطانيا).

(22) *IDEM*, *Ibid*, p. 235

(23) Lacroix, *op. cit.*, p. 66 ; Desanges, *Catalogue des tribus africaines de l'antiquité classique à l'Ouest du Nil*, Dakar, 1962, p. 35.

(24) Dion Cassius, *H.R*, LV, 28, 3-4

(25) Gsell, *H.A.A.N.*, T. VIII, *op. cit.*, pp. 227-228

(26) Rachet, *Latomus*, 110, *op. cit.*, pp. 69-79

بل أكثر من ذلك نجد عند تاكيتوس أصداء لمساهمة الملكين يوبا الثاني وبطليموس على التوالي في محاربة تاكفاريناس زعيم المزالمة[27] الذي كان قد أعلن ثورته شمال شرق جبال الأوراس في وسط إفريقيا البروفنصلية آنذاك، وذلك على امتداد سبع أو ثمان سنوات طوال 17-24م[28].

ولما تأكدت روما من نجاح الملكين ــ أو خيل لها ذلك ــ في مهمة ترويض الرعايا الموريين لتقبل الثقافة الرومانية[29]، أنهت هذه المرحلة الانتقالية بتخلص الإمبراطور كاليكولا من الملك بطليموس سنة 40م، حسب إشارة وردت عند ديون كاسيوس، وذلك باغتياله في مدينة ليون الغالية حين نزوله ضيفاً على الإمبراطورية[30].

ولما كان اغتيال بطليموس إيذانا بالنهاية الفعلية للمملكة الموريطانية في غرب إفريقيا الشمالية، فقد قامت في عموم المملكة عدة ثورات استنكارية تطلبت ــ لقمعها وخنقها في المهد ــ تدخل العديد من القادة الرومان الكبار بحملات عسكرية منظمة.

ولعل من أهم هذه الثورات، إن لم تكن أهمها على الإطلاق، ثورة إيدمون (Aedemon)، وثورة سالابوس (Salabos)، بين سنتي 40-43م.

وإذا كانت ثورة إيدمون التي دوخت الرومان في مثلث المغرب الروماني قد نالت عناية مركزة على يد الباحث محمد مقدون[31]، فإن ثورة سالابوس في شرق المغرب لم تلق لحد الساعة أي اهتمام يستحق الذكر[32].

---

(27) Tacite, *Annales*, IV, 24

(28) Benabou, «Tacfarinas, insurgé bérbère contre la colonisation», in *Les Africains*, VII, éd. Jeune Afrique, nouvelle édition, Paris, 1990, pp. 293-313.

(29) Ph. Leveau, *La fin du royaume maure et les origines de la province romaine de Mauritanie Césarienne*, B.C.T.H, N. S, fascicule 17 B, 1981, Paris, 1984, p. 317.

(30) J.C., Faur, *Caligula et la Mauritanie : la fin de Ptolemée*, Klio, LV, Berlin, 1973, pp. 249-271.

(31) محمد مقدون، **ثورة إيدمون 40-44م**، رسالة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ القديم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس ظهر المهراز، 1985، مرقونة.

(32) محمد اللبار، «دور المغرب الشرقي في عرقلة الوجود الروماني في إفريقيا الشمالية»، **مجلة جمعية تاريخ المغرب**، وجدة، العدد الأول، يونيو 1993، ص 19.

ثانيا : سالابوس وشرق المغرب في مواجهة الرومان (40-43م) :

أ ــ المقاومة والمصادر التاريخية :

1 ــ الحصيلة :

من المؤسف جداً أن تبخل علينا النصوص التاريخية والنقائش الأثرية في موضوع المقاومة بصفة عامة في إفريقيا الشمالية إبان الاحتلال الروماني، إذ لا يتعدى ما وصل إلينا منها بعض أصداء انتصارات القادة الرومان على بعض زعماء الثورات والانتفاضات هنا وهناك[33].

ومما يؤسف له كذلك أن هذه الأصداء في حد ذاتها لم تصل إلينا عبر أقلام محلية أمازيغية، بل تناقلتها حوليات وأدبيات ونقائش لا تخلو من شبهات استعمارية وتحيز سافر للرومان وسياستهم. ولنا على سبيل المثال في مؤلف سالوستيوس عن **«حرب يوغورطة»** وفي **«حوليات»** تاكيتوس عن ثورة تاكفاريناس خير الشواهد وأوضح الأمثلة[34].

أما بخصوص شرق المغرب، فقد سجل لنا التاريخ في بعض مصادره القديمة عدة حملات رومانية استهدفت المنطقة في منتصف القرن الأول للبلاد قادها كايوس سويطونيوس باولينوس (Caïus Suetonius Paulinus) وكنيوس هوزيديوس جيتا (Cnéus Hosidius Géta).

أشار إلى حملات القائد الأول باقتضاب شديد بلينيوس الشيخ، ولم يشر إليها ديون كاسيوس إلا بحملة واحدة، في حين انفرد هذا الأخير دون سواه بالحديث عن حملات القائد الثاني في بضعة سطور.

* **رواية بلينيوس الشيخ**[35] :

ف 14 ــ «إن سويطونيوس بولينوس ــ الذي رأيناه قنصلا ــ هو أول قائد

(33) Benabou, *La résistance...*, *op. cit.*, p. 57

(34) سالوستيوس، انظر التازي سعود، **حرب يوغورطة، مرجع سابق.**

Tacite, *Les Annales*, Livres I-XVI, texte établi et traduit par Wuilleumier (P), 4 Tomes, Paris, Belles Lettres, 1975-1978.

(35) Pline, H.N., V, 14-15, d'après Roget, *Le Maroc...*, *op. cit.*, pp. 33-34

روماني تجاوز الأطلس ببضعة أميال. وتتطابق تقاريره عن ارتفاع هذه السلسلة مع كل التقارير الأخرى : إن سفح الأطلس مكسو بغابات كثيفة وعميقة، ذات أشجار من صنف مجهول. جذوع هذه الأشجار براقة وخالية من العقد، أوراقها تشبه أوراق الأرز، رائحتها نافذة، ويكسوها زغب خفيف : يمكن أن تصنع منه ملابس، كما يفعل بالحرير. أما قمم الأطلس، فمكسوة ــ حتى في الصيف ــ بقشرة سميكة من الثلج.

ف 15 ــ في ظرف عشرة أيام، وصل سويطونيوس بولينوس ــ حسب قوله ــ إلى الأطلس، ثم إلى نهر يدعى فيما يبدو كَير (Ger)، مخترقا صحاري ذات رمل أسود تتخلَّلها من مكان لآخر أكمات صخرية (سوداء) كأنها محروقة. وقد أصبحت هذه البلاد غير صالحة للسكنى ــ حسب تجربته الشخصية ــ بسبب حرها حتى في فصل الشتاء...».

* **رواية ديون كاسيوس**(36) :

«في السنة الموالية، تعرض الموريون الذين استأنفوا الحرب للقمع. وقام سويطونيوس بولينوس ــ البريطور سابقا ــ بدوره بغارات في بلاد الموريين إلى الأطلس.

وزحف هوزيديوس جيتا ــ نده وخلفه ــ ضد زعيمهم سالابوس (Salabos)، فهزمه مرتين متواليتين. مما اضطر هذا الزعيم ــ بعدما ترك على الحدود بعض الجنود المكلفين بوقف المطاردة ــ إلى اللجوء إلى المناطق الكثيرة الرمال. فتجرأ هوزيديوس واقتحم المنطقة معه.

نظم (هوزيديوس جيتا) قسما من جيشه لترصد الكمائن والعراقيل، وتقدم إلى الأمام حاملا معه ــ حسب استطاعته ــ أكبر كمية من الماء. ولما استهلك هذا الماء ولم يجد غيره، أصبح عرضة لكل أنواع القلق.

لكن بما أن الباربار المعتادين على تحمل العطش لمدة طويلة، والذين يفلحون ــ بفضل معرفتهم للمنطقة ــ في التزود بالماء، كانوا قادرين على تمديد مقاومتهم، لم يكن في وسع الرومان أن يتقدموا إلى الأمام أو أن يتراجعوا إلى الوراء.

(36) Dion Cassius, *H.R*, LX, 9, 1-6, d'après F. De la chapelle «L'éxpédition de Suetonius Paulinus dans le sud-est du Maroc», *Hésperis*, T. XIX, 1934, pp. 109-110.

وأمام هذه الورطة، أقنع أحد الأهالي من الحلفاء القائد هوزيديوس بالاستعانة بالتعازيم والسحر، مؤكداً أن هذه الوسيلة غالباً ما تجلب الماء بكميات كبيرة. وفعلا نزلت من السماء مياه غزيرة أروت عطش الجيش وأرعبت الأعداء، الذين اعتقدوا أن ذلك مدد إلاهي لخصومهم وقرروا آنذاك تلقائيا التخاطب في السلام».

2 ــ نقد المصادر :

بالرغم من أهمية هذه الحملات، يلاحظ أنها لم تلفت انتباه العديد من المؤلفين القدماء ــ كما أن سالابوس في حد ذاته لم ينل ما يستحقه من العناية عند هؤلاء الذين تجاهلوه بصفة عامة ــ وخاصة منهم أولئك الذين أرخوا للإمبراطورية الرومانية خلال القرن الأول للميلاد مثل : تاكيتوس[37] وبلوتارخوس[38] وسويتونيوس[39] وأبيانوس[40].

بل أكثر من ذلك، إن القائد سويطونيوس بولينوس نفسه كان قد دون أحداث حملاته عبر موريطانيا في تقارير أشار إليها بلينيوس الشيخ واعتمد عليها[41]، وتحسب اليوم في عداد المؤلفات المفقودة[42].

(37) تاكيتوس (Caius Cornelius tacitus) : مؤرخ لاتاني (54–120م)، تقلد عدة مناصب سياسية في روما، له عدة مؤلفات أشهرها :
* **التواريخ**، التي نشرها حوالي سنة 100م، ودون فيها أحداث الفترة 68–96م. جعلها في 14 كتابا لم يصل منها إلا الكتب الخمسة الأولى.
* **الحوليات**، التي نشرت سنة 117م، وأرخ فيها أحداث الفترة 14 ق.م – 68م. جعلها في 16 كتابا وصلت منها كاملة ثمانية كتب 1–4 و12–15، في حين وصلت مقتطفات من بعضها وهي الكتب 5 و6 و11 و16.

(38) بلوتارخوس Plutarchos : مؤرخ إغريقي (46–120م)، عاش في روما على عهد الإمبراطور تراخانوس، زار الشرق الأدنى، له كتاب «**سير الرجال العظام**» (Vies Paralleles)، طبع في ثلاثة عشر جزءاً.

(39) سويتونيوس (Caïus Suetonius Tranquillus) : مؤرخ روماني (69–122؟ 126م)، له عدة مؤلفات اهتمت بسير الأباطرة والنحاة والخطباء والشعراء. أهمها «**حياة القياصرة الإثني عشر**» (Vies des douze Césars) ضمنه تاريخ الأباطرة الرومان الاثني عشر الأوائل.

(40) أبيانوس (Appianos) : مؤرخ يوناني (ق. 2م)، عاش في الإسكندرية خلال النصف الأول من القرن الثاني للميلاد جعل مؤلفه «**التاريخ الروماني**» في 24 جزءاً.

(41) Pline, *H.N*, V, 14, d'après Roget, *Le Maroc...*, *op. cit.*, p. 33

(42) Lacroix, *op. cit.*, p. 71

وإذا كان فقدان كتب الملوك هيمبسال[43] ويوبا الثاني[44] له ما يبرره، باعتبارها مؤلفات كتبت بأقلام محلية مارست الرقابة الرومانية اللاتانية عليها سلطتها وحذفتها من الرواج، فإن فقدان مؤلف سويطونيوس بولينوس أو فقدان تقاريره ليس له ما يبرره في نظرنا، إلا أن يكون هذا القائد قد فضل الحديث عن الموريين الذين حاربهم، وعن قادتهم ونظمهم وشجاعتهم وتكتيكهم الحربي، وباختصار إلا أن يكون قد أرخ لهم بالعمد أو دون قصد منه.

وهكذا يكون بلينيوس الشيخ وديون كاسيوس المؤلفين الوحيدين اللذين أشارا إلى ثورات شرق المغرب على عهد الإمبراطور كلوديانوس (41–54م)، وجاءت إشارتاهما متكاملتين. وذلك ــ طبعا ــ باستثناء الجغرافي صولان الذي عاش خلال القرن الثالث والذي نقل حرفيا إشارة بلينيوس دون أي اجتهاد يستحق الذكر[45].

كما يكون ديون كاسيوس المؤرخ الوحيد الذي تحدث عن سالابوس عبر فقرة يتيمة. وبذلك كان سالابوس ثالث ثائر أمازيغي ينال الاهتمام في المصادر الرومانية بعد يوغورطة الذي أفرد له سالوستيوس كتابا كاملا، وبعد تاكفاريناس الذي تحدث عنه وعن ثورته المؤرخ تاكيتوس عبر بعض صفحات الكتاب الثاني والثالث والرابع من «**حوليات**»ـه[46]. فمن يكون ديون كاسيوس إذن ؟

---

(43) أشار سالوستيوس (التازي سعود، **حرب يوغرطة**، 17، **مصدر سابق**، ص. 106) إلى «الكتب البونيقية المعزوة للملك هيمبسال». ورجح الباحث محمد التازي سعود في شرحه، الشرح 22 (**المصدر السابق**، ص. 214) أن يكون هذا الملك هو هيمبسال الثاني بن كوضا ابن مستنبعل بن مسنيسا. حكم ماسيليا الشرقية ما بين 88–60 ق.م.

(44) يوبا الثاني، هو ملك موريطانيا الكبرى الذي نصبه الرومان سنة 25 ق.م، ودام حكمه بها إلى وفاته سنة 23م. أشار بلينيوس إلى أن شهرته في الميدان العلمي كانت تفوق شهرته ملكاً (Pline, H.N, V, 16). كما نعته بلوتارخوس بأنه من أفضل المؤرخين الذين عرفوا من بين الملوك (Plutarchos, *Sertorius 8 et Cesar 55*).

(45) C. Julius Solinus, *Collectanea rerum memorabilium iterum recensuit*, éd. Mommsen, Berlin, 1895, p. 110 d'après : De la chappelle, *Héspéris*, T. XIX, *op. cit.*, p. 108.

(46) سالوستيوس، انظر التازي سعود، **حرب يوغورطة**، **مرجع سابق**.

Tacite, *Les Annales*, Livres I-XVI, texte établi et traduit par Wuilleumier (P), 4 Tomes, Paris, Belles Lettres, 1975, 1978.

هو مؤرخ روماني الجنسية، يوناني اللغة (155–230م)، جعل مؤلفه «**التاريخ الروماني**» في ثمانين كتابا تعرض فيها لتاريخ الرومان على امتداد ألف سنة تقريبا من تأسيس روما سنة 753 ق.م. إلى حدود سنة 229م. لم يصل إلينا من مؤلفه هذا كاملا سوى الكتب 30–54، في حين نقل مؤرخون متأخرون مختصرات لكتبه الأخرى، نذكر منهم على وجه الخصوص جان كزيفيلين[47] وجان زوناراس[48].

إلا أن المعلومات التي أوردها ديون كاسيوس عن سالابوس وإن كانت ذات أهمية، فهي لا تشفي غليل الباحث المتعطش ولا تجيب عن كافة تساؤلاته. وذلك لسبب واضح للغاية، وهو أن هذا المؤرخ ـــ الذي لم يكن شاهد عيان ولا معاصرا للأحداث ـــ لم يتحدث عن سالابوس وثورته إلا بما سمحت له به الإشارة وهو يدون باختصار شديد انتصارات القائد الروماني هوزيديوس جيتا.

وهكذا أهمل ديون كاسيوس شخصية سالابوس وظروف ثورته وملابساتها، ولم يسلط الضوء إلا على فترة وجيزة جداً من حياة هذا الثائر وهو في حالة حرب ضد الرومان.

وهذا ما يفرض علينا ضرورة التساؤل عن أسباب ثورة سالابوس وعن العوامل المحفزة لها، وعن مدى قوتها ووسائلها وأساليبها وعن أبعاد نتائجها.

هذا، وإذا ما تساءلنا عن بلينيوس الشيخ وعن شهادته، فحري بنا أن نذكر أنه مؤرخ لاتاني الأصل (23–79م)، معاصر لأحداث ثورة سالابوس، وأنه هو صاحب المؤلف المشهور «التاريخ الطبيعي» (Naturalia Historia) الذي جعله في سبعة وثلاثين جزءا، وصلت إلينا كاملة. وأنه أفرد الجزء الخامس من مؤلفه هذا للحديث عن إفريقيا الشمالية طبيعيا وبشريا وضمنه بعض المعلومات التاريخية.

إلا أن شهادته التي أوردها عن حملة سويطونيوس بولينوس إلى ما وراء الأطلس، وإن كانت ذات أهمية، فهي لا تشبع فضول الباحث ولا تشفي غليل تساؤلاته. وذلك لسبب واضح للغاية، هو أن هذا «الجغرافي» ـــ الذي لم يكن

(47) Jean Xiphilin, Patriarche du 11e siècle

(48) Jean Zonaras, Chroniqueur du 12e siècle

شاهد عيان ــــ لم يأخذ من تقارير سويطونيوس بولينوس عن حملته إلا ما يخدم غايته من مؤلفه وهو يدون أوصافه للمنطقة بكل اقتضاب. فجاءت إشارته عن ثورات شرق المغرب آنذاك إشارة هزيلة أهملت كل شيء عن الأهالي الثوار وعن زعامتهم وعن ظروف ثورتهم وملابساتها وما ارتبط بها من الأسباب والحوافز والنتائج.

أما الباحثون المحدثون، فقد تجاهلوا سالابوس ونشاطه. فاكتفى بعضهم ــــ وهم قلة قليلة ــــ بالإشارة إلى ثورته وبذكر اسمه[49]، ولم يتعد البعض الإشارة الخفيفة إلى القائدين الرومانيين[50]. وانفرد الباحث دولاشابيل بمقالة عن «حملة سويطونيوس بولينوس»، محورها في إطار يدرس بالدرجة الأولى إشكالية الربط البري بين الموريطانيتين الطنجية والقيصرية[51]، هذا الربط الذي لم يكن في نظره إلا في الحالات الاستثنائية، مؤكدا أن حملة هذا القائد كانت أساسا ضد رعاة رحالة صحراويين كانوا يقضون فصل الشتاء في الصحراء، ويتبعون في الصيف مياه نهر ملوية أو الهضاب المجاورة له قاصدين سهول ملوية السفلى وما جاورها في الشمال، فيهددون بحركتهم تلك كل ربط وتواصل مطمئن بين الموريطانيتين. هؤلاء الرعاة الرحالة الذين لم يتورع دولاشابيل عن نعتهم بالنهاب والسراق، مرجحا أن يكون سويطونيوس بولينوس قد انطلق من غرب موريطانيا القيصرية ليشن عليهم غاراته، سالكا طريقه عبر تلمسان، وسبدو، وتندرارة، وسهل تاملالت، وعين الشعير عند سفح الأطلس، على امتداد ثلاث مائة كيلومتر بمعدل ثلاثين كيلومترا في اليوم، وتعدى الأطلس بعد ذلك إلى وادي كَير بضواحي بوعنان وربما دخل تافيلالت نفسها.

وبناء على ما سبق، فإن الأسئلة الملحاحة التي تفرض نفسها هي : من يكون

---

(49) M.D. Avezac, *Histoire et Description de l'Afrique*, Paris, 1844, p. 224 ; Lacroix, *op. cit.*, p. 71 ; Benabou, *Tacfarinas, op. cit.*, p. 297 ; Carcopino, *M.A, op. cit.*, p. 37.

(50) Charles André Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord*, T.I, Paris, Payot, 1978, pp. 126-127.

(51) De la chapelle, *Héspéris*, T. XIX, *op. cit.*, pp. 107-124

انظر مقالة محمد اللبار، «الرباط البري بين الموريطانيتين الطنجية والقيصرية»، **مجلة كلية الآداب بالرباط**، العدد 19، 1994، صص 123-137.

هؤلاء الأهالي الثوار الذين نعتهم دولاشابيل بالنهاب والسراق ؟ ومن يكون زعيمهم سالابوس ؟ وما ظروف ثورتهم وملابساتها ؟

ب ــ أهالي المنطقة ومقاومة الاستعمار الروماني :

1 ــ شرق المغرب : المجال والإنسان :

مما لاشك فيه أن محاولة التعريف بالموريين الذين حاربهم القائدان الرومانيان سويطونيوس بولينوس وهوزيديوس جيتا أمر صعب جدا، مادامت النصوص التاريخية التي أوردها بلينيوس[52] وديون كاسيوس[53] لا تذكر هؤلاء الأقوام بصريح العبارة.

إلا أن الاقتناع برأي دولاشابيل بخصوص انطلاق حملات القائدين الرومانيين من غرب المغرب الأوسط واتجاههما نحو تافيلالت عبر النجود العليا والأطلس[54]، اقتناع يساعد على تحديد المجال الحيوي لهؤلاء الأقوام على الأقل، ويمهد انطلاقا من هذا المجال لكشف هوية أولئك الذين كانوا يستغلونه خلال القرن الأول للميلاد.

ولما كان نص بلينيوس يذكر بصريح العبارة الأطلس ونهراً باسم كَير (Ger)[55]، فإن الأقرب إلى الصواب هو أن تنطلق التحريات من هذه المعالم الجغرافية في شكل ملاحظات :

أولها : أن القائد سويطونيوس بولينوس قد تجاوز الأطلس ووصل إلى نهر يدعى كَير (Ger)، رأى فيه الباحثون النهر المعروف بهذا الاسم نفسه ــ إلى يومنا هذا ــ إلى الشرق من تافيلالت[56]، منطلقين من أن هذه التسمية في حد ذاتها جذر أمازيغي يعني وادياً أو نهراً[57].

(52) Pline, *H.N.*, V, 14-15

(53) Dion Cassius, *H.R.*, LX, 9, 1-6

(54) De la Chapelle, *Héspéris*, T. XIX, *op. cit.*, p. 122

(55) Pline, *H.N.*, V, 14-15

(56) De la Chapelle, *Héspéris*, T. XIX, *op. cit.*, p. 108

(57) H. Lhote, «L'expédition de Cornelius Balbus au Sahara en 19 av. J.C.», *Revue Africaine*, T. XCVIII, 1954, p. 50.

ثانيها : أن الأوصاف التي أوردها بلينيوس عن المنطقة التي عبرها هذا القائد في ظرف عشرة أيام قبل وصوله إلى الأطلس تنطبق إلى حد كبير على جغرافية النجود العليا الشرقية بما فيها من صحار ذات رمل أسود تتخللها من مكان لآخر أكمات صخرية سوداء، كأنها محروقة، تعرف اليوم في المنطقة باسم «الكارات»[58].

ونستدل على ذلك بأن لفظة «بركَم» أو «بركَنت» ـــ الاسم العتيق لمدينة عين بني مطهر اليوم ـــ تختزل هذه الطبوغرافيا السوداء اللون. ونرجح أن تكون اللفظة «بركَم/ بركَنت» مجرد نطق مخفف للفظة «تبركَنت» التي تعني السوداء في بعض اللهجات المحلية. كما نرجح أن تكون تبركَنت هذه هي تلك المدينة التي أشار إليها جغرافي رافنا باسم لاتاني مركب بصيغة **Ripas Nigras**[59] **(Ripae Nigrae)**، بمعنى الضفاف السوداء أو المرتفعات السوداء.

ثالثها : أن الأطلس الذي ذكره بلينيوس وديون كاسيوس كذلك، وانطلاقا من الملاحظتين السالفتين، لا يمكن أن يكون إلا شرق الأطلس الكبير الفاصل بين النجود العليا الشرقية شمالا وبين وادي كَير وتافيلالت جنوبا.

أما بخصوص احتمال وصول أحد القائدين (أو كليهما) إلى واحات تافيلالت، فإننا نميل إلى تأييد هذه الأطروحة، خاصة وأننا نجد لحملاتهما صدى عند المؤرخ الرحالة الحسن الوزان الذي ينسب تأسيس مدينة سجلماسة إلى «قائد روماني ذهب من موريطانيا... ثم زحف شطر الغرب حتى ماسة. فبنى المدينة وسماها سجلوم ميسي، لأنها كانت آخر مدن دولة ماسة ؛ ولأنها كانت كالخاتم الذي يسجل نهاية فتوحاته. فحرف هذا الاسم بعد ذلك وتحول إلى سجلماسة»[60]. بل أكثر من ذلك، نجد لها صدى كذلك في الروايات الشفوية التي يتناقلها أهل

---

(58) De la Chapelle, *Héspéris*, T. XIX, *op. cit.*, p. 122

(59) Geographe de Ravenne, III, 9, d'après Roget, Le Maroc, *op. cit.*, p. 42

(60) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد لخضر، ج 2، الرباط، 1982، ص 127.

(61) Dion Cassius, *H.R.*, LXXV, 13

تافيلالت من جيل إلى جيل إلى يومنا هذا، والتي تعود بتأسيس مدينة سجلماسة إلى الفترة الرومانية.

واعتماداً على ما سبق، يتضح جليا أننا مقتنعون جدّاً بأن القائدين الرومانيين قد انطلقا من غرب المغرب الأوسط وسلكا الطريق من هناك إلى تافيلالت عبر تلمسان، وسبدو، وعين بني مطهر، وتندرارة، وعين الشعير، وبوعنان أو عين الشواطر، فبوذنيب، مخترقين أراضي كان ينتج فيها أقوام ضمن مجال حيوي أوسع وأشمل. وهو مجال حيوي يمتد بين الوهرانية شرقا والأطلس المتوسط غربا، ويبتدىء من البحر الأبيض المتوسط شمالا ليتوغل إلى تخوم الصحراء بواحات وادي كَير الأعلى وتافيلالت جنوبا. فمن كان هؤلاء الأقوام آنذاك ؟ (انظر الخريطة رقم 5).

كان من اليسير علينا أن نعرف هؤلاء الأقوام بسهولة لو أن الأركيولوجيا مدتنا بالنقائش التي تخلد وصول القائدين إلى تافيلالت، وتأسيس مدينة سجلماسة، أو بتلك التي تضبط ظروف ومعاهدة السلم وتجدد بنود هذه المعاهدة التي اتفق عليها هوزيديوس جيتا مع الزعيم الموري سالابوس، لأننا متيقنون أنه ما كان من عادة الرومان أن ينجزوا أعمالا في مثل مستوى تأسيس مدينة أو تحقيق نصر دون تدوين ذلك على الصخر. ومما يقوي يقيننا في ذلك كون التاريخ احتفظ لنا في فوروم وليلي بنقيشة ماركوس فاليريوس سفروس (Marcus Valerius Severus) التي كانت تزين قاعدة التمثال الذي أقيم تكريماً لهذا القائد الروماني واعترافا بجميله وحسن بلائه في القضاء على ثورة إيدمون المعاصرة لثورة سالابوس.

إلا أن غياب هذه النقائش لحد الساعة لا يعني في نظرنا انعدامها — مع ما يترتب على ذلك من نتائج — بقدر ما يعني أن هذه المناطق الممتدة بين البحر المتوسط وتافيلالت، بما في ذلك موقع سجلماسة نفسها، لم تخضع بعد — حتى اليوم — لأية أبحاث أركيولوجية منظمة، علمية وممنهجة، من شأنها أن تكشف عن الكثير من الأسرار التاريخية.

تحدث ديون كاسيوس عن الأطلس في نص آخر[61]، فأكد «أن هذه السلسلة الجبلية تقع في الجانب الغربي من بلاد المكنيتيين، بالقرب من المحيط».

---

(62) Carcopino, *M.A.*, *op. cit.*, p. 262 ; Desanges, *Catalogue*, *op. cit.*, p. 34

مما يفهم منه ضمنيا أن هؤلاء المكنيتيين كانوا يقيمون إلى الشرق من الأطلس المتوسط. وزاد أن «استقرار المكنيتيين كان في موريطانيا الجنوبية». وهو الاستقرار الذي أجمع الباحثون على توطينه في شعاب الأطلس الكبير الشرقي[62]، علما أن جل الباحثين الذين تعرضوا لذكر المكنيتيين أجمعوا من دون أي تحفظ على أن هؤلاء هم أسلاف القبيلة الأمازيغية الزناتية مكناسة[63] ــ مكناسة الفترة الإسلامية ــ التي كانت مواطنها خلال القرن الثامن للميلاد تمتد بين تافيلالت جنوبا ومليلية ومصب ملوية شمالا ومضيق تازة غربا وهضاب الجنوب الوهراني شرقا[64]، القبيلة التي أقامت مدينة سجلماسة الإسلامية سنة 140هـ/757-758[65].

وتحدث بطليموس في جغرافيته عن مواطن هؤلاء المكنيتيين، فجعلها إلى الجنوب مباشرة بعد مواطن إقامة الباكواطيين[66].

درس عدد من الباحثين مواطن الباكواطيين وعلاقاتهم مع السلطة الرومانية على امتداد القرنين الثاني والثالث للميلاد، اعتمادا على مجموعة من النصوص الأدبية وعدة نقائش عثر على معظمها في مدينة وليلي. وتجنب هؤلاء الباحثون ــ كل بطريقته ــ التساؤل بجدية عن المواطن الأولى لهؤلاء الباكواط قبل إقامتهم منذ منتصف القرن الثاني للميلاد في المناطق الشمالية والشمالية الغربية للأطلس المتوسط على أبواب وليلي[67].

إلا أن كل القرائن تدل أن هؤلاء الباكواط كانوا يقيمون طيلة القرن الأول

---

(63) لعل الاسم الأمازيغي الأصلي هو تمكناست الذي لازال صداه يرن إلى يومنا هذا في قرية صغيرة في جنوب شرق عين الشعير بحوالي عشر كيلومترات تحمل اسم حاسي تمكناس.

(64) Vivien de St Martin, Le Nord de l'Afrique dans l'antiquité Grecque et Romaine, Paris, 1863, p. 408 ; Desanges, *Catalogue, op. cit.*, p. 34.

(65) أبو عبيد الله البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب**، تحقيق دوسلان، طبعة منقحة، باريس، 1965، ص 148 ؛ أحمد الناصري، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج 1، الدارالبيضاء، 1954، ص 124.

(66) Ptolémée, IV, 1, 5, d'après Roget, *Le Maroc, op. cit.*, p. 37

(67) Carcopino, *M.A.*, op. cit., pp. 258-275 ; Thouvenot, «Rome et les barbares africains», *P.S.A.M.*, 7, Rabat, 1945, pp. 166-183 ; Frezouls, «Les Baquates et la province romaine de Tingitane», *B.A.M.*, II, 1959, pp. 65-116.

للميلاد في شرق المغرب ــ كما أشار إلى ذلك الباحث أوزينات ــ[68] في ربوع تمتد بين نهر ملوية غربا ومدينة كارطناي (Cartennae [تنس Ténés الحالية]) شرقا على أقل تقدير، خاصة وأن أقدم نقيشة معروفة لحد اليوم، تذكر الباكواطيين بصريح العبارة، هي المعروفة عند الباحثين بنقيشة كارطناي.

وهي نقيشة غير مؤرخة تحكي حدث مساهمة سكان هذه المدينة بكافة شرائحهم في إقامة تمثال تذكاري لكايوس فولكينيوس أوبتاتوس (Caïus Fulcinius Optatus) الذي أحبط هجوما بكواطيا على مدينتهم، فاستحق بذلك شرفا لم ينله أحد قبله في هذه المدينة[69].

وحول تأريخ هذه النقيشة، اختلف الباحثون اختلافا كبيرا. فهذا كانيا (Cagnat) رأى بتحفظ شديد أنها دونت حدثا وقع في عهد الإمبراطور سبتيموس سفروس (193-211م)[70].

وربط توفونو تاريخ هذه النقيشة بالإضطرابات التي عرفتها الموريطانيات في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس (161-180م) وكومودوس (176-192م)[71].

واقترح كاركوبينو[72] بعدما فند ادعاءات سابقيه، أن هذه النقيشة تؤرخ لحدث معين وقع في عهد الإمبراطور هادريانوس (117-138م) بين سنتي 117 و122م، حدث انتهى برفع تمثال شرفي لكايوس فولكينيوس أوبتاتوس في كارطناي من جهة، وبإقامة السلم مع هؤلاء الباكواط الذين أطلق هادريانوس أيديهم في أراضي الأوطولول ــ الذين كانوا يستغلون المجال المحصور بين نهر سلا وجبل

---

(68) Euzennat, «Le Limes», *B.A.M.*, II, *op. cit.*, p. 229

(69) *C.I.L.*, VIII, n° 9663
Carcopino, *M.A.*, *op. cit.*, p. 263.
Frezouls, *B.A.M.*, II, *op. cit.*, p. 66.

(70) René Cagnat, *L'Armée Romaine d'Afrique*, Paris, 1912, p. 48 et p. 55

(71) Thouvenot, «Les Incursions des Maures en Bétique sous le règne de Marc Auréle», *R.E.A.*, T. XLI, 1939, pp. 25-28.

(72) Carcopino, *M.A.*, *op. cit.*, p. 262 et sq.

الأطلس ـــ[73] ضاربا بذلك عصفورين بحجر واحد من جهة ثانية.

فند فريزول رأي كاركوبينو موضحا أن ليس هناك أي قرينة تدل على أن الباكواط قد اصطدموا مع الأوطولول أو أبادوهم، ومبينا أنه ليس من حكمة السياسة الرومانية أن يكون الإمبراطور هادريانوس قد عمد إلى ترحيل الباكواط ـــ بعدما أخضعهم قادته ـــ من شرق المغرب إلى الغرب من مضيق تازة إلى منطقة أسهل غزوا وأكثر خصوبة[74].

وهكذا يكون فريزول قد أوحى لنا بأن هجرة الباكواط من شرق المغرب في اتجاه سايس شمال الأطلس المتوسط لم تكن هجرة قسرية فرضتها عليهم هدنتهم مع السلطة الرومانية بقدر ما كانت هجرة اختيارية اقتضتها ظروف الباكواط وتكتيكهم مع الزمن في مقاومة الرومان. هذه الهجرة التي انتهت باستقرارهم على أبواب وليلي التي احتفظت لهم بأربع عشرة نقيشة مؤرخة بين سنتي 140م و280م[75]. وهي ذاتها الهجرة التي فسحت المجال لقبائل البوار (Bavares) أن يخلفوهم في غرب موريطانيا القيصرية منذ مطلع القرن الثاني للميلاد[76].

بعد كل هذا، لا نرى أي حرج في ترجيح نقيشة كارطناي هذه بصفتها وثيقة تاريخية منقوشة تؤرخ لصدى ثورة شرق المغرب عقب اغتيال الملك بطليموس سنة 40م بصفة عامة. كما تؤرخ لهجومات بكواطية على مدينة كرطناي بصفة خاصة. هذه الهجومات التي فرضت على حاكم المدينة ـــ باعتبارها أقرب مستعمرة رومانية لمواطن البكواط آنذاك ـــ أن يتخذ من الإجراءات الإستعجالية ما يحبط مسعى الثوار المهاجمين من جهة؛ ودفعت روما إلى التفكير في المسألة بجدية فجندت لقمع هؤلاء خيرة قادتها وضباطها، من جهة ثانية.

ومما يؤيد هذا الرأي أن المتمعن في نص ديون كاسيوس يفهم ضمنيا أن سويطونيوس بولينوس لم يكن أول قائد حارب الموريين في المنطقة عقب اغتيال

(73) Pline, *H.N.*, V. 5

(74) Frezouls, *B.A.M.*, II, *op. cit.*, p. 102

(75) *Idem, Ibid.*, pp. 65-116

(76) Camps, «Les Bavares peuple de Maurétanie Césarienne», *R. Afr.*, T. XCIX, 1955, pp. 241-288.

الملك بطليموس، إذ يقول : «في السنة الموالية، تعرض الموريون الذين استأنفوا الحرب للقمع. وقام سويطونيوس بولينوس ــ البريطور سابقا ــ بدوره بغارات في بلاد الموريين إلى الأطلس».

وإذا كانت نقيشة كارطناي تفهمنا أن حاكم هذه المدينة كايوس فولكينيوس أوبتاتوس قد حارب البكواطيين، وردهم على أعقابهم وحال دون دخولهم مدينته، فإن كل القرائن السالفة ترجح بطريقة تلقائية أن انطلاق حملات سويطونيوس بولينوس وهوزيديوس جيتا على الثوار الموريين كان من هذه المدينة بالذات.

كما تدل هذه القرائن على أن هذين القائدين حاربا حلفاً موريّاً كان يرأسه الزعيم سالابوس ويضم الباكواطيين والمكنيتيين على الأقل. ولعله كان أول حلف معروف بين الطرفين اقتضته ظروف الثورة ومواجهة الإستعمار الروماني. هذا الحلف الذي تلته عدة أحلاف أخرى فيما بعد نجد له صدى واضحا في بعض النقائش التي احتفظت بها مدينة وليلي والمؤرخة بسنوات 175/173م[77].

2 ــ قيادة الثورة :

نعتقد أن كل من وقف عند النصوص التي أوردها بلينيوس الشيخ وديون كاسيوس حول ثورة سالابوس في شرق المغرب قد لاحظ ما تميزت به تلك النصوص من البخل في المعلومات التي من شأنها أن تسلط بعض الضوء على زعامة هذه الثورة.

إلا أن كل القرائن التاريخية التي تجعل من سالابوس زعيم حلف باكواطي مكنيتي، وكل المعارك التي خاضها قادة رومان كبار ضد هذا الحلف (سويطونيوس بولينوس وهوزيديوس جيتا)، ومعاهدة السلم الموقعة بين الطرفين الموري والروماني في حدود سنة 43م ــ إن كل ذلك كفيل وحده بأن يقنع المتتبع لهذه الأحداث بأن قيادة هذه الثورة كانت على غرار قيادات معظم الثورات المورية في أيدٍ أمينة قوية مؤمنة بقضيتها المصيرية لا نرجح إلا أن يكون صاحبها سالابوس على علاقات وثيقة بأنصاره، علاقات تطبعها الثقة المتبادلة بينهم، وأن

(77) Frezouls, *B.A.M.*, II, *op. cit.*, p. 67, Inscription n° 3, et p. 73, Inscription n°13.
محمد مقدون، «قبيلة المكنيتيين من خلال النقائش والنصوص الإغريقية واللاتينية»، **أعمال ندوة الحاضرة الإسماعيلية الكبرى**، أكتوبر 1986 (1988)، صص. 152-153.

يكون في حد ذاته متميزا بأخلاق عالية أو أن يكون سليل أسرة ذات سمعة طيبة في بيئتها المحلية والجهوية، وأن يكون رجلا شهما ذكيا شجاعا على غرار شهامة كافة قادة المقاومة ورجال المقاومة وذكائهم وشجاعتهم في كافة عصور تاريخ المغرب.

3 ــ مراحل الثورة على الرومان :

مما لاشك فيه أن روما عقب اغتيال الملك بطليموس سنة 40م نهجت كعادتها في مثل هذه الظروف سياسة هجومية عدوانية على أراضي المملكة الموريطانية الشاسعة بهدف ضمها نهائيا ورسميا إلى ممتلكاتها في إفريقيا الشمالية آنذاك.

ومما لاشك فيه أيضا أن روما ــ باعتبارها قوة استعمارية ــ قد نهجت في سبيل تحقيق أهدافها التوسعية في المنطقة كل الوسائل والأساليب الاستعمارية المعروفة، السياسية منها والحربية على حد سواء.

ومما لاشك فيه أيضا أن الأهالي الموريين قد تصدوا لهذه الهجمة الاستعمارية الرومانية بكل ما أوتوا من قوة وإيمان مدافعين عن كرامتهم وأرضهم طمعا في المحافظة على استقلالهم. فانطلقت إذاك ــ سنة 40م ــ ثورة إيدمون في شمال ما سيعرف فيما بعد بموريطانيا الطنجية، وكان هجوم الباكواط انطلاقا من النجود العليا على مدينة كارطناي إيذانا بإشعال فتيل الثورة في عموم شرق المغرب إلى تخوم الصحراء بزعامة سالابوس.

والواضح من الشهادتين المتكاملتين لبلينيوس الشيخ وديون كاسيوس أن سالابوس وثواره من الباكواط والمكنيتيين قد استطاعوا أول الأمر الصمود في وجه الغارات الرومانية المتعددة التي قام بها على التتابع القائدان سويطونيوس بولينوس وهوزيديوس جيتا نحو النجود العليا إلى الأطلس بهدف بسط النفوذ الروماني على هذه المناطق.

إلا أن المكر الاستعماري الروماني كان أقوى من استعداد المقاومة المورية للمواجهة آنذاك، إذ عملت روما على عادتها في سبيل تنفيذ سياستها الاستعمارية على إثارة أطماع رؤساء بعض القبائل وعملت على ربطهم بمصالحها بواسطة الأماني والوعود أو بواسطة بذل الأموال لهم بسخاء. فاشترت بذلك ذممهم

وولاءهم. بل أكثر من ذلك رفعت روما بعض هؤلاء الرؤساء درجات وجعلت منهم أمراء وملوكا وخلعت عليهم أردية الإمارة والملوكية، وأتحفتهم بالهدايا : صولجان فضة مذهب، وتاج فضي مزين بأحجار كريمة، ومعطف أبيض، وقميص أبيض، وأحذية مطرزة بخيوط مذهبة[78].

وبفضل هذه الإغراءات، ضمنت روما لنفسها حلفاء موريين ــ فوق التراب الموريطاني ــ متواطئين معها أشار إليهم ديون كاسيوس بصريح العبارة وهم يرشدون طريق القائد هوزيديوس جيتا ويعززون صفوف جنده ويزحفون معه ضد سالابوس وثواره.

وقد كان هذا التواطؤ من مثبطات المقاومة المورية في المنطقة، مما اضطر الزعيم سالابوس إلى الانسحاب إلى الصحراء بعد انهزامه في معارك نظامية كلاسيكية وجها لوجه مع القادة الرومان، ومما اضطره كذلك إلى التخاطب في السلام مع روما.

هذا، وإذا كانت المصادر المتوافرة حول ثورة سالابوس تنهي حديثها عن ثورات شرق المغرب بعقد معاهدة سلام مع روما سنة 43م، فإن كل القرائن التاريخية توحي بأن تلك الحملات العسكرية المتوالية التي جهزتها روما بين سنتي 40م و43م على النجود العليا إلى تخوم الصحراء قد كلفت الرومان عدة تضحيات بشرية ومؤونة حربية باهظة الثمن[79]، عجزت خزينتهم عن تغطية مثيلات لها فيما بعد من جهة. وتوحي القرائن نفسها من جهة ثانية بأن الرومان ــ الذين عجزوا عن بسط نفوذهم في هذه المنطقة ــ قد فهموا جيدا أن المغامرة هناك تعب كبير ونفع قليل.

هذا، ويستشف من تاريخ الوجود الروماني في إفريقيا الشمالية بصفة عامة أن المنطقة ــ الممتدة ما بين نوميروس سيروروم (مغنية) [Numerus Syrorum] شرقا ومدينة وليلي [Volubilis] غربا وعلى امتداد عمقها من البحر المتوسط شمالا إلى ما وراء تافيلالت إلى تخوم الصحراء جنوبا ــ أن هذه المنطقة قد بقيت على طول

---

(78) Procopius, *B.V.*, I, XXV, 5-7, éd. Dewing, p. 200

(79) R. Thouvenot., «Compte rendu du Maroc Antique de Carcopino», *Héspéris*, T. XXXVIII, 1951, 3-4 trimestres, p. 474 ; De la chapelle, *Héspéris*, XIX, *op. cit.*, p. 110.

هذا التاريخ منطقة خارج النفوذ الروماني، مما يدل قطعا على قوة صمود أهلها واستمرار هذا الصمود في وجه هذا الاستعمار[80].

بل أكثر من ذلك يفهم من سياق تاريخ إفريقيا الشمالية في العهد الوندالي المتأخر والبيزنطي أن هذه المنطقة بالذات قد ظلت دوما خارج مناطق نفوذ الوندال والبيزنطيين وأنها حافظت على استقلالها إلى أن دخلها العرب المسلمون الفاتحون في منتصف القرن السابع الميلادي.

خاتمة :

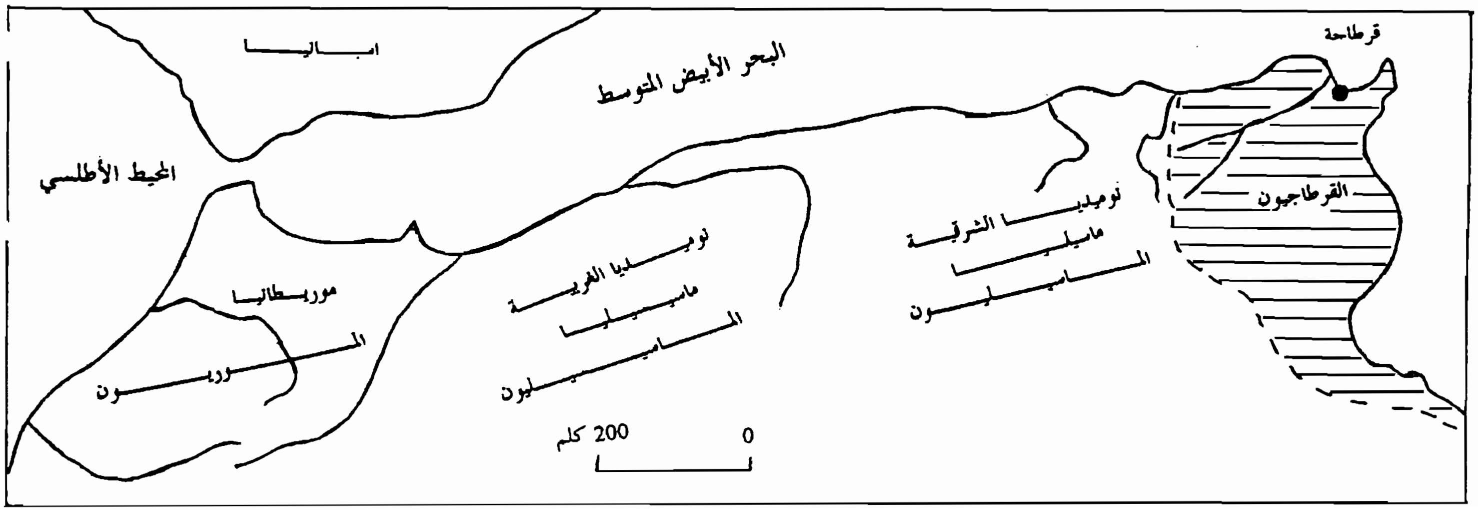
تكمن أهمية مقاومة شرق المغرب للأهداف التوسعية الرومانية في أنها كانت خلال منتصف القرن الأول للميلاد مقاومة سباقة إلى إعلان الثورة العارمة على الاستعمار الروماني في ممتلكات المملكة الموريطانية سابقا، إن لم تكن هذه المقاومة في حد ذاتها من الأسباب العميقة التي كانت من وراء تقسيم هذه المملكة وتنظيم أراضيها في ولايتين متميزتين : موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية. كما كانت هذه المقاومة طيلة قرون الاحتلال الروماني لإفريقيا الشمالية مقاومة شعبية مسلحة مستمرة تحفزها ولاشك عدة عوامل سياسية واقتصادية مرتبطة بالمجال الحيوي لقبائل المنطقة، مقاومة استطاعت مع الزمن أن تفرض على المستعمر الروماني احترام المنطقة وعدم التفكير في استعمارها أو استغلالها، وأرغمته انطلاقا من نهاية القرن الثالث للميلاد على التراجع إلى ما وراء نهر اللكوس شمالا في موريطانيا الطنجية وإلى ما وراء واد شليف شرقا في موريطانيا القيصرية[81].

انظر الخرائط في الملحق.

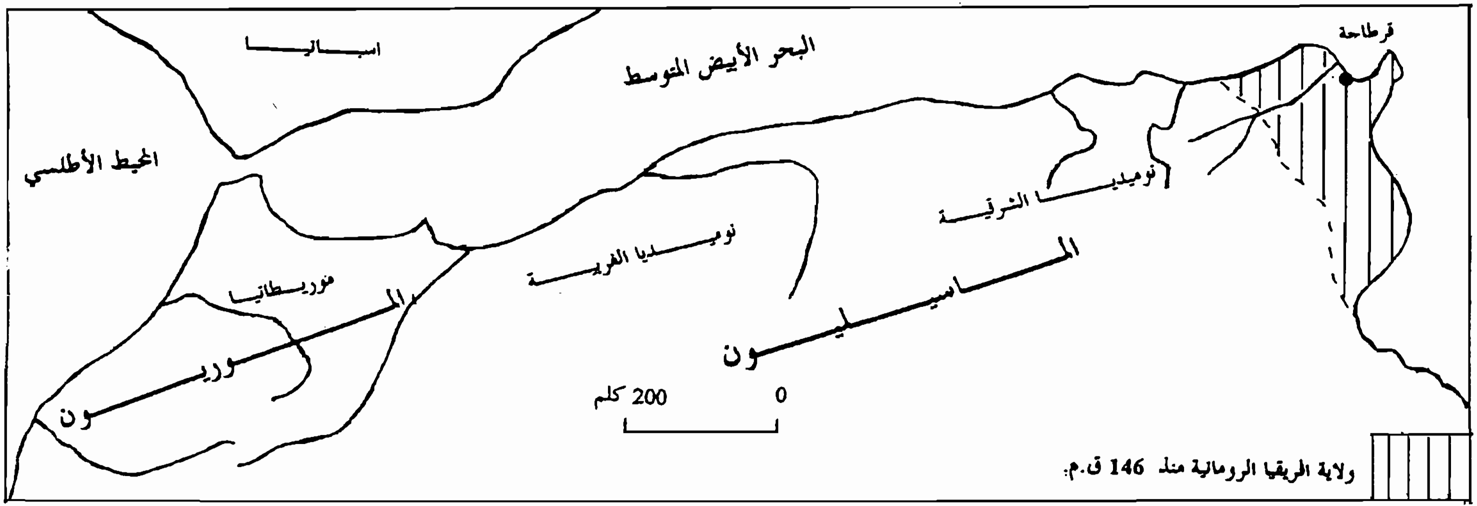
(80) محمد اللبار، **مجلة جمعية تاريخ المغرب**، وجدة، العدد الأول، **مرجع سابق**، ص 11-24.

(81) René Cagnat, «La réorganisation de l'Afrique sous Dioclétien», *Mélanges Louis Havet*, Paris, 1909, pp. 65-75 ; André Le Cocq, La Maurétanie Tingitane et le Partage de l'empire romain en 293, in *B.S.G.O.*, 1909, 3e Trim, p. 483.

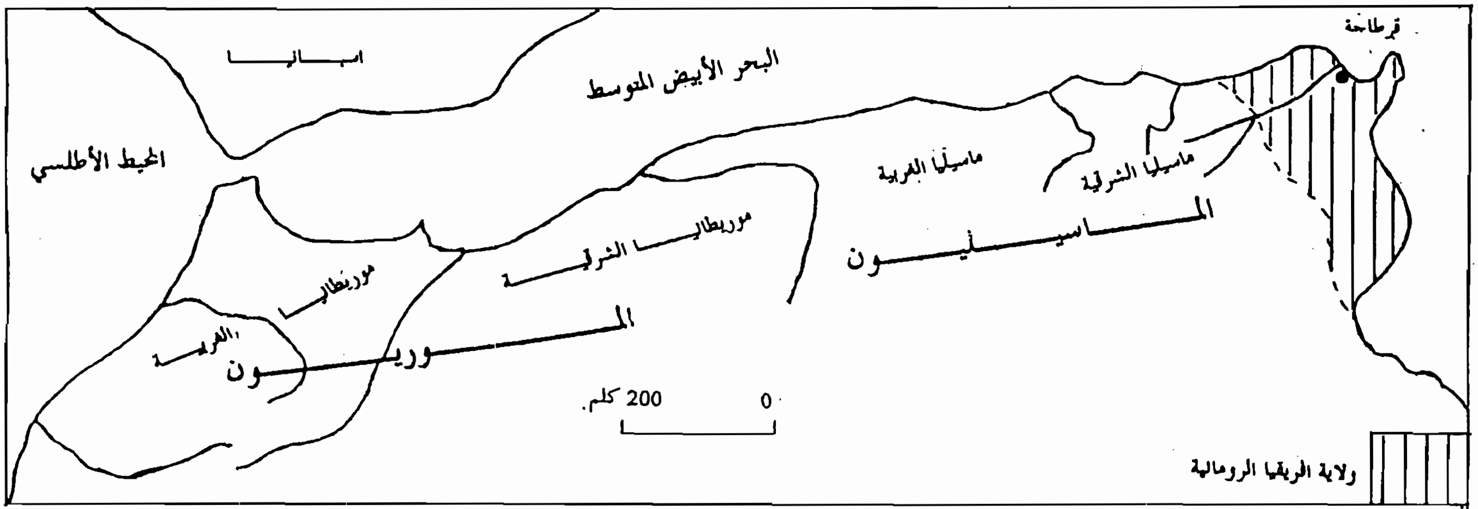
خريطة رقم 1 : حالة إفريقيا الشمالية في نهاية القرن 3 ق.م



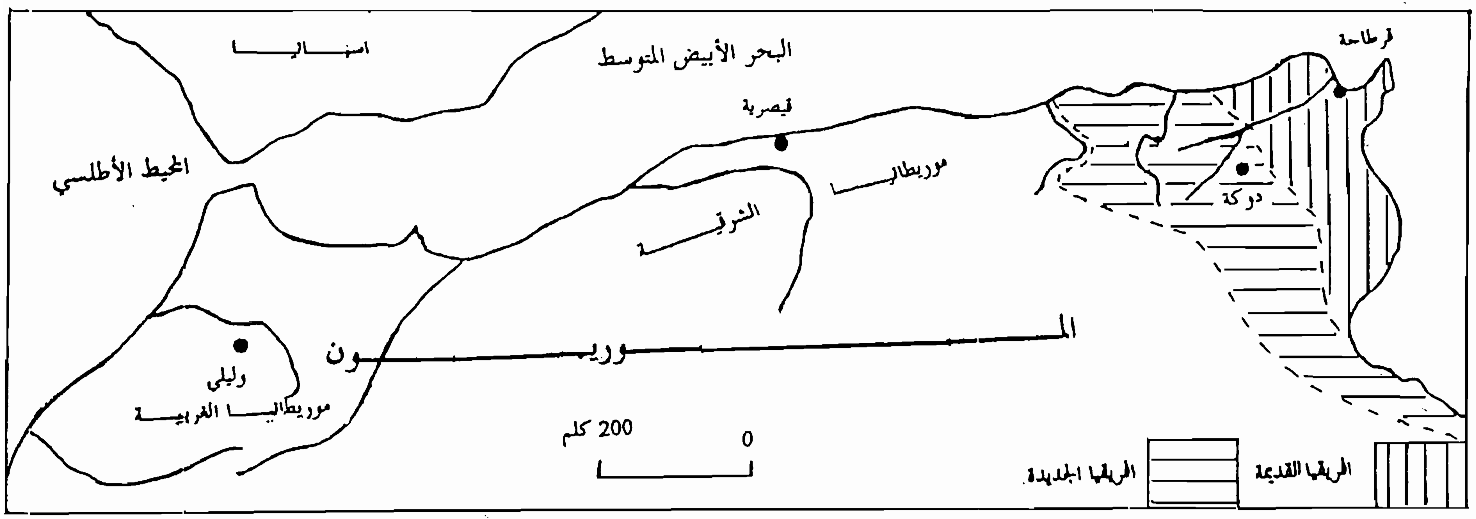
خريطة رقم 2 : حالة إفريقيا الشمالية خلال القرن الثاني ق.م إلى حدود سنة 106 ق.م



خريطة رقم 3 : حالة إفريقيا الشمالية من سنة 105 ق.م إلى حدود سنة 47 ق.م



خريطة رقم 4 : حالة إفريقيا الشمالية من سنة 38 ق.م إلى سنة 40م



الخريطة رقم 5 : الطريق المحتمل لحملة القادة الرومان
على الزعيم الموري الثائر سالابوس حوالي سنوات 40-43م

